النقد ونقد النقد:

نشأ خطاب نقدي معرفي جديد تجلت ملامحه في الفكر النقدي اليوناني والعربي القديم، وقد تم التعارف على تسميته بـ "نقد النقد" أو كما يحلو لـ **أحمد المديني** بأن يصفه بـ "المتن المثلث"؛ لأنه الخطاب الثالث الناتج عن خطابي الأدب والنقد، والذي يجعل من النصوص النقدية ميدان بحثه، ويستهدف تقديم المناهج المختلفة وتطبيقاتها؛ بمعنى أنه النقد الثاني الذي يكتب عن الأول، ويستفيد من المدونات النقدية لإنجاز عمل موجود يشتغل عليه "أهله ولا يصحح أخطاءه إلا من احترفه، وليس بقادر على تصويب مسيرة العلم من كان معترضا على وجوده أصلا". ويحمل هذا الخطاب دورا تعقيبيا تصحيحيا للخطابات النقدية.

تحتاج الخطابات النقدية في مرحلة من مراحل تطور المعرفة وفق **عبد السلام المسدي** إلى أن يتم "الالتفات إلى منجزاتها لمراجعتها ولتصحيح مسارها بتصويب ما علق بها من أخطاء أو شابها من انحرافات [لأن ذلك] أهم بكثير من مواصلة إنجاز المكتسبات الجديدة والتمادي في تحقيق التراكم الكمي". بيد أن **المسدي** يصنف خطاب نقد النقد إلى صنفين متقابلين بناءً على طبيعة ممارسته؛ "نقد النقد بما هو خطاب النصيحة في مواجهة نقد النقد بما هو خطاب الاغتياب"؛ ذلك أن الصنف الأول يسهم في تطوير النقد، أما الثاني فيكتب من أجل هدمه، وتخريب معالمه أو بعبارة أخرى؛ "الأول يتم إنتاجه داخل الدائرة من موقع النصير، والثاني تنتجه آلة الاعتراض، الأول ابن الحمية المعرفية، والآخر وليد الحمية الثقافية".

وبالتالي، يعتبر موضوع النقد مجال بحث خطاب نقد النقد بالنظر إلى ضبط آليات اشتغاله، وتفحص مصطلحاته ومفاهيمه، وتحديد منطلقاته؛ بوصفه أي نقد النقد نشاطا معرفيا يهتم بمراجعة الأقوال النقدية كاشفا سلامة مبادئها النظرية وأدواتها التحليلية، وإجراءاتها التفسيرية.

يهتم خطاب نقد النقد بالخطاب النقدي، في مستوى مغاير من الممارسة النقدية فيجعل النقد منطلقا مركزيا يستمد منه مرجعيته؛ ليتمكن فيما بعد من قراءته، وهو بذلك يتجاوز البحث في الإبداع - ميدان بحث النقد - إلى البحث "ليس [عن] المعرفة بل معرفة المعرفة"، ولا تتجاوز هذه الأخيرة حدود الأدبي والنقدي. من هذا المنطلق، يؤكد **نبيل سليمان** على أن نقد النقد خطاب "يستنهض إلى التبصر بما يكمن وراء الظاهرة الأدبية ووراء العملية النقدية في نفس الوقت من متشابكات يتعاون كل من الأدب والنقد على إخفائها فهو بذلك يستحثك أن تهتك الحجب والأستار فتنفذ بعين التبصر وروح الاعتبار إلى حيث يغيب بصر الآخرين"؛ ما يعني أن هذا الخطاب يهتم بالأدبي والنقدي بدرجات متفاوتة مع تركيز مكثف على العملية النقدية بوصفها موضوعه المحوري.

على هذا الأساس، يحاول خطاب نقد النقد بوصفه خطابا واصفا للنقد، أن يجعل من النصوص النقدية مجال بحثه، وأن يشكل لنفسه مقاربة تعمل على تفحص المقولات النقدية وتطبيقاتها، تحتكم إلى قياس درجة التناسب أو التعارض بينها؛ أي بين ما هو نظري بحت وبين ما هو تطبيق له على النصوص الأدبية. ومن ثم يسعى إلى رصد جدوى المنهج المعتمد كإجراءات وفرضيات وآليات عمل، "ويميل إلى بحث موضوعات أو نصوص نقدية سابقة ثم لأنه يتزود بحصيلة نظرية وإجرائية تخضع تلك الموضوعات والنصوص إلى مبادئها وصولا إلى فهم جديد يعطيها صورة غير مكررة". إن خصوصية خطاب نقد النقد أو المتن الثالث يجعل العلاقة مباشرة بين كل من النص الأدبي والنقدي، وبين نقد النقد والنص النقدي في حين نجدها تضطرب بين النص الأدبي ونقد النقد؛ وهو ما يدل على "أن نقد النقد مرتبط بنقد الإبداع لا بالإبداع ذاته وعليه فمن الضروري أن تراعى هذه الحقيقة عند كل محاولة للحديث عن منهج نقد النقد".

الشكل الأول*

الشكل الثاني**

لقد سعى عدد من النقاد إلى محاولة تأصيل خطاب نقد النقد، ومنهم **عبد الملك مرتاض** الذي قدم دراسة مهمة، ضَمَّنها الإرهاصات الأولى لهذا الخطاب عند العرب والغرب، مَثَّل فيه النموذج العربي كل من **عبد العزيز الجرجاني** و**طه حسين**، وفي التجربة الغربية **رولان بارت** و**تزفيتان تودوروف**. وإذ يعترف **مرتاض** بحداثة نشأة هذا الخطاب في الساحة النقدية العربية، يرى أنه يقتصر على إصدار أحكام قيمية تستحسن النص أو تستهجنه، تشير إلى مواطن القوة والضعف فيه، بالموافقة أو المعارضة، اعتمادا على الانطباعات الشخصية، والقراءة الأولية للنص النقدي. بيد أن **مرتاض** يفضل استخدام مصطلح "قراءة القراءة" بديلا عن "نقد النقد" -لاعتبارات أسهب في تعدادها- ويقصد به ذلك النقد المعني بالكتابات النقدية؛ أي أنه النقد الثاني الذي يكتب عن الأول، ويتألف من نقد أخر قائم على نقد سبقه؛ والأسبقية تعني هنا "التعاقب لا الأفضلية" فإن كان النقد، هو مجموعة

من المواقف الفلسفية، فالنقد المختص بالنقد لا يعدو كونه "موقفا من موقف ناقد سابق كان اتخذه هو من هذه الكتابة".

يستوقفنا **مرتاض** عند الدلالة السلبية لنقد النقد في المفهوم العربي، والذي يعني أن "النقد الثاني يسعى إلى نقد النقد الأول، الذي يكتب عنه بنية الغمز والتهجين" ويختلف عن الدلالة التي أقرتها "المعاجم الغربية، إذ تعني السابقة Méta الاحتواء والإبعاد، أو المجانبة والمهامشة"؛ أي أن هذا الوصف يحمل سمات القبول والتعقب النقدي، دون أن يكون السعي مستهدفا البحث عن النقائص، والثغرات التي وقع فيها الناقد.

غير أن **مرتاض** يستثني من وصفه السابق محاولة **محمد مندور** في كتابه " النقد المنهجي عند العرب"، بل ويشيد بها، ويعدها نموذجا مثاليا في ممارسة نقد النقد العربي، أما ما سواها من دراسات فلا يخرج فيها أصحابها عن إبداء "رضا وتعاطف أو تملق أو تقرب، وإذن فهو التقريظ والمديح، وتمثل هذه الكتابة الثناء الكاذب والتمجيد المنافق، وغالبا ما تنصب على الكاتب على حساب الكتابة، وإما أن يصدر عن سخط وقلى". لتبقى الممارسة المستهدفة للنصوص النقدية وفق رؤية منهجية وموضوعية "مسعى، على كل حال عزيز التناول، عسير المعالجة، معتاص الممارسة". وإن كان هذا الطرح لا يجحد القيمة المعرفية التي تحملها القراءات النقدية المستهدفة بيان مرجعيات المناهج النقدية في شقها المعرفي.

أما **أحمد حيدوش** في دراسته "الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث" فيستعرض أهم الأسماء النقدية العربية التي ارتبط عملها بالتحليل النفسي للنصوص الأدبية سعيا إلى البحث عن "عناصر صالحة لفهم التجربة الأدبية فهما صحيحا، ودعم النقد الأدبي وإغنائه بدراسات مساعدة"، مشيرا في خضم حديثه إلى أنه استند في عمله على "الوصف والتحليل والتقويم والتركيب"، كل هذه المراحل تعد جزءاً لا يتجزأ من أبجدية التعامل مع النصوص النقدية.